الثعالبي (ت٤٢٩هـ/١٠٣٧م) رائدُ الاستدامة

م.د. وليد جاسم عباس- جامعة المستقبل

Waleed.Jasim.Abbas@uomus.edu.iq

الملخص

يؤشرُ (الثعالبي) من خلال الأشعار المختارة في كتابه (اليتيمة)، الآثارَ الناتجة من الأنواء، كالزلازل والفيضانات والعواصف والحرائق، فالأنواء والحروب المتكررة ينتجُ عنها ضرراً بيئياً خطيراً، لوجود الأعداد الكبيرة من الموتى، فتظل الجثث لأيام طويلة في الشوارع والبيوت، وما ينعكس في التأثير الصحي والبيئي على كساد الاقتصاد والتجارة وظهور حالات المجاعة والفقر، وشيوع عمليات السرقة والسلب والنهب.

وفي دراستنا للأشعار لاحظنا وجود مظاهر حضارية تدل على التقدم في ذلك العصر باستخدام الأساليب والطرق المختلفة لمجابهة ارتفاع أو انخفاض درجات الحرارة باستخدام الفضاءات في بناء الدور، وطرق بناء الدور والباحات الكبيرة وارتفاعات السقوف، والشبابيك والمداخن والمدافئ والمروحة، والحمّامات، واستخدام النقوش، وكيفية مجابهة موجات البرد والثلوج باستخدام كوانين النار ووسائل التدفأة.

يُظهرُ لنا كتاب (يتيمة الدهر ومحاسن أهل العصر) استخدام الطرق العصرية المتطورة -آنذاك- لسقي المزروعات مثل النواعير، والسدود والقنوات، واستخدام مقاييس المياه لقياس ارتفاع مناسيب الأنهر.

نجدُ البيئة يعانقُها الشعراء تارةً وتشكل مصدر إلهامهم، فتكون قوافيهم وموسيقى حروفهم، وتصدح قصائدُهم مع الطيور، وتتلون بألوان الزهر، وتارةً أخرى تتحول القصائدُ رعداً وبرقاً وزلازلاً وحروباً..

ولكنها أقاليم تتوحّدُ تحت خيمة (الثعالبي) الحالم بإقليم يمتد من المشرق الى المغرب ليرمَ خارطةً جديدةً تشرقُ بها شمسٌ لا تغيب في أرض المسلمين.

الكلمات المفتاحية: (البيئة، التنمية المستدامة، الثعالبي، الأقاليم، يتيمة الدهر).

Al-Thaalibi (D.429 AH-1037 AD)

Pioneer Of Sustainability

Dr. Waleed Jasim Abbas- Al_ Mustaqbal University

Waleed.Jasim.Abbas@uomus.edu.iq

Abstract:

Through selected poems in his book entitled (The Orphan), (Al-Tha'alabi) discusses the effects resulting from climates, such as earthquakes, floods, storms,

and fires. Repeated climates and wars result in serious environmental damage, due to the presence of large numbers of dead people, so corpses remain for long days in the streets and homes, and what is reflected in the effect. Health and environmental impacts on the economic and trade recession, the emergence of famine and poverty, and the spread of theft, robbery and plundering.

In our study of poetry, we noticed the presence of cultural manifestations that indicate progress in that era, using different methods and methods to confront high or low temperatures, using spaces in building houses, methods of building houses, large courtyards, ceiling heights, windows, chimneys, heaters, fans, bathrooms, the use of inscriptions, and how to confront cold waves and snow using koans. Fire and heating means.

The book (The Orphan of Time and the Virtues of the People of the Age) shows us the use of advanced modern methods at that time to water crops, such as waterwheels, dams, canals, and the use of water meters to measure the height of river levels.

We find that the environment is embraced by poets at times and constitutes the source of their inspiration, so it becomes their rhymes and the music of their letters, and their poems sing with the birds and are colored with the colors of flowers, and at other times the poems turn into thunder, lightning, earthquakes, and wars, But they are regions that unite under the tent of (Al-Thaalabi), the dreamer of a region extending from the East to the West, to draw a new map in which a sun that never sets will shine in the land of Muslims.

Keywords: (environment, sustainable development, regions, orphan of time).

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم (ما نُنسخُ من آيةٍ أو نُنسها نأتِ بخيرٍ منها أو مثلها ألمْ تعلمْ أنّ اللهَ على كلّ شيءٍ قديرٌ) البقرة: ١٠٦.

الحمدُ لله في الأول والآخر، الحمدُ لله الذي أقسمَ بالنونِ والقلم، وأنزلَ أوّلَ آياتهِ في العِلمِ والمعرفة، ثم جاء نبيُّنا الكريم- صلّى الله عليه وسلّمَ تسليماً- حيثُ أمرَنا وأوصانا بطلبِ العِلمِ من المهد الى اللحد، وألاّ تتوقف عجلةُ البحثِ والتدقيق عندّ حدّ أو مرتبةٍ أو عمرٍ، وهكذا مضى على سُنّتهِ الخلفاءُ والصحابةُ والأئمةُ الأعلام.

نقفُ على بحثٍ في كتابٍ يُعدُّ واحداً من كتب العرب الأولى، فلا يخلو كتابُ تاريخٍ وأدبٍ ونقدٍ ولغةٍ دونَ أن يضعهُ ضمنَ مصادرهِ، ذلكَ هو كتاب (يتيمة الدّهر ومحاسن أهل العصر) لمصنّفهِ رائعةِ زمانهِ وزماننا، أبي منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل النيسابوري الثعالبي (ت ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م) الأديبُ، اللغوي المؤرخ. إذْ درسَ وحقّقَ كتبَهُ العديدُ من المحقّقين والباحثين، فكتبوا عنهُ وفيه، وتناولوا المصنّف مرّةً ومصنّفاته مرةً اخرى، فمنهم منْ قرأ (الثعالبي) ناقداً، وأديباً، ولغوياً، ومنهم منْ وقفَ عندَ منهجهِ عموماً. أمّا هذه الأوراق فستدرسُ كتاب (يتيمة الدّهر ومحاسن أهل العصر) من زاويةٍ أخرى، تهتمُ بقضيّةٍ سعى فيها (الثعالبي) ووضعَ منهجَ كتابهِ على أسس جديدةٍ ، ففي المنهج الإقليمي، الذي اعتمدناه في قراءتنا الجديدة للكتاب، لتكونَ البيئة والتنمية المستدامة، هما المحوران اللذان نتناولهُما هنا، فوجدنا من خلال الدراسة وما أضاءتهُ المصادر والمصنّفات لإكتشافِ ما لمْ يُسلّطْ عليه الضوء من أساتذتِنا الأجلاّء والباحثين للغور في الكتاب واستنباط أثر البيئة ومكانتها في رسم المنهج نحو تنميةٍ مستدامةٍ ؛ لتكونَ الدراسةُ في مبحثين:

-المبحثُ الأول/ في شخصية (الثعالبي)، ترجمتُهُ، مصادر ثقافته في كتابه (يتيمة الدهر ومحاسن أهل العصر) وبعض شذراته ونقداته المبثوثة في الكتاب، ووصف كتاب يتيمة الدهر ومحاسن أهل العصر، ومنهج الثعالبي في الكتاب، ثم قيمة الكتاب.

-المبحث الثاني/ الجانب التطبيقي في الدراسة، للبيئة في الكتاب .

عنوان البحث/ والعِلّةُ في اختيار العنوان لأن موضوع البحث أصبحَ الشغل الشاغل للشعوب والأمم، والمتغيّرات الخطيرة التي يشهدُها الغلافُ الجوي، والظواهر البيئية المخيفة مثل : ثقب

الأوزون، ظاهرة الاحتباس الحراري، ظواهر التصحّر والجفاف، وما تمّ تشريعه من أنظمةٍ وقوانين بدءاً من المنظمة الأممية والدول المتقدمة للمحافظة على سلامة البيئة تجاه الصناعات والأبخرة والمحروقات والحروب والوسائل المستخدمة في الصناعات والتقنيات المتطورة وفضلات المفاعلات النووية والمواد المشعة والسامة، والمبيدات الكيمياوية، وغيرها الكثير..

لا بُدّ لنا أن نهتمَ بالبيئة وأن نسارع لحمايتها لأنّ الضرر كبير والخلل سيؤدي بغرق سفينة الحياة برُمّتها دون استثناء

وللعرب والمسلمين الرسالةُ الأولى في الاهتمام بالنظافةِ والطهارة، والتراث العتيد في دراسة البيئة ووضع نظرياتهم وبرامجهم وتوصياتهم، ومن هؤلاء : الأصمعي (ت ٢١٦هـ/ ٨٣٠م) في كتابه (الخيل والإبل)،إذْ تحدّثَ عن أصناف الحيوانات البرّية والبحرية والأليفة والمتوحشة، وأبو عثمان الجاحظ (ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٩م) في كتابهِ (الحيوان)،إذْ يتابعُ الحيوان في بيئتهِ وسلوكهِ، وعن الحشرات الضّارة والنافعة، وتأثيرات المناخ على تربية الحيوان، والمجريطي (ت ٤٠١هـ/ ١٠٠٨م) كتابُهُ (الطبيعيات وتأثير النشأة والبيئة على الكائنات الحيّة)، وفيهِ تحدّثَ عن أسس التفاضل بين الحيوانات ووجودِها، كما هي موجودة في بني البشر، فيها رؤساء وقادة في كل جنس.. وهناك الكثير من العلماء الذي لا يسع هذا البحث الأخذ بهم وعرض منجزاتهم. نتمنى أن يكون البحثُ لبنةً أخرى لبناء بيئةٍ نظيفةٍ مستدامة ليعيشَ العالمُ بسلامٍ وأمنٍ، فالأمنُ والسلامُ لم يكونا بإيقاف الحروبِ فحسب، بل نحتاجُ بناءً من الداخل، في نفس وهاجس كل مواطن في هذا العالم الكبير كي يكونَ صديقاً للبيئة.

المبحث الأول

الثعالبي ومنهجهُ في كتاب (يتيمة الدهر ومحاسن أهل العصر)

ترجمة المؤلف/ الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل النيسابوري، الإمام الأديب اللغوي، من أئمة اللغة والأدب، من أهل نيسابور، كانت ولادتُهُ سنة ٣٥٠هـ، ووفاتهُ

سنة ٤٢٩هـ، لهُ من التصانيف: أحاسن المحاسن، اعجاز الايجاز، التمثيل والمحاضرة، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، جواهر الحكم، سحر البلاغة وسر البراعة، فقه اللغة.. وغيرها الكثير. وبضمنها كتابه موضوع البحث (يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر)، ويقعُ في أربعةِ أجزاء. وقيلَ في عِلّةِ تسميته ولقبه (الثعالبي) لدى المصنّفين القدامى، نسبةً الى خياطة جلود الثعالب وعملها، قيل لهُ ذلكَ لأنهُ كانَ فرّاء [١: ٦٢٥-اسماعيل باشا]

أمّا الدكتور (محمود عبد الله الجادر) في كتابه (الثعالبي ناقداً وأدبياً) أشارَ أنّ والدَهُ كانَ فرّاءً[٢: ٥٥-الجادر] . ووصفهُ الباخرزي (ت ٤٦٧هـ/ ١٠٧٥م) في كتابه (أسد الصناعة في غابة الثعالب، وتصنيفاته للأنس جوالب، وأسلاته في النطق والكتابة قواضٍ قواضب) [٣: ١/١١٢ الباخرزي]، وقالَ عنهُ ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) : (كانَ إماماً في اللغة والأخبار وأيام الناس بارعاً مفيداً) [٤/٢-٢٤٧ ابن كثير] . لم تقتصر اهتمامات (الثعالبي) ومصنفاته على الأدب فقط بل تنوّعت بتنوّع ثقافته وثقافة عصره، فخاضَ في البلاغة واللغة والتاريخ والأخلاق، ومن مصنّفاته المتنوّعة (سحر البلاغة، وفقه اللغة ، ثمار القلوب. . .)

مصادر ثقافته: وضعَ (الجادرُ) في كتابهِ مصادر ثقافة الثعالبي، فإنّ حالَ عائلة (الثعالبي) الفقيرة لا تسمح بأن تتبنى له شيخاً من العلماء يتتلمذُ على يديه، فكانت الكتبُ شيخَهُ الأولَ، يتلقّى ويستلهمُ منها علومَهُ ومعارفَهُ، ويمنحُها الكثير من وقته. خصّ (الثعالبي) القرآنَ الكريمَ، فكانتِ الآياتُ القرآنيةُ حُجّةً لهُ في كثير من آرائهِ، والمصدر الآخرُ في ثقافتهِ التراث الضخمُ من الثقافتين العربية والمترجمة، إذْ كانَ يتتبعُ الحقيقةَ التي يريدُ اقتناصَها في مضانّ الكتب.

ويبدو أنهُ كانَ كثيرَ الاعجابِ والمتابعةِ لمؤلفات (الجاحظ) و(ابن قتيبة) و(المبرّد) و (الصّولي)و (الصّابي) و (القاضي الجرجاني).تبيّنَ تأثير الكتب ومواصلته القراءة والبحث في الكتب في مؤلفاتهِ التي تحملُ في معظمها قرائح ونتاج العلماء والمصنّفين الى جانب ثمار قريحته [٢: ٥٨.]

مصادر الثعالبي في كتاب (يتيمة الدهر)/ من خلال دراستنا للكتاب، استطعنا أن نحصر مصادر (الثعالبي) التي اعتمدها في كتابه (يتيمة الدهر ومحاسن أهل العصر) في الأقسام التالية:

آ- الرواية والمشافهة/ جمع الأخبار والتراجم والأشعار بصورة المشافهة من الشعراء مباشرةً ممن سمعهم أو التقاهم أو منْ روى عنهم بقوله: أولاً- (حدّثني..، أنشدني..، وأخبرني جماعة..، وبلغني..) [٥: ١/ ٢٥٠،٨١،٢٥، ٣٠٦، ٣٠٧الثعالبي [. ٢- وقوله عبارة (أنشدتُ لهُ..، أنشدني لهُ..، أنشدني لبعضهم..، أنشدني لنفسه..) [٥: ٢/٢٩٦، ٤/٢٩٢.]

ب- المخطوطات/ جمعَ (الثعالبي) بعض النصوص في كتابهِ من أشعار ونثر وتراجم وأخبار، مخطوطة بخط كاتبيها أو رواتها، وذلك بقوله:

أولاً-(ووجدتُ بخط أبي بكر الخوارزمي هذه الأبيات منسوبةً الى أبي وائل تغلب بن داود بن حمدان، ورويت لغيره).[٥: ١/ ١٠٥.]

ثانياً- (ووجدتُ بخطّهِ -يقصد الخوارزمي- لحمدان الموصلي..).[٥: ١/١٠٥.]

ثالثاً- وقوله(وجدتُ على ظهر دفتر عراقي الخط هذين البيتين..).[٥: ١/١٢١.]

رابعاً- وقوله (ومما قرأتُ بخطّه -يقصدُ أبا العبّاس أحمد بن ابراهيم الضبّي-..).[٥: ٤/١٩٣.]

خامساً- وقوله (وكتبَ لي بإسفرائين-ويقصدُ أبا العباس أحمد بن اسحاق الجرمقي- شيئاً من شعره ...) .[٥: ٤/ ٣٤١.]

ج- الكتب/ من خلال الكتب المتنوعة في عصره، جمعَ (الثعالبي) البعض الآخر من نصوص كتابه بقوله :

أولاً-(وذكرَ القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز في كتاب الوساطة..).[٥: ١/ ١٣٤.]

ثانياً- (وأنشدني أيضا محمد بن عمر الزاهر للحسن بن عبد الرحيم الزلالي صاحب كتاب الأسجاع..).[٥: ١/ ٣٠٧.]

ثالثاً-(وأنشدني أبو سعد نصر بن يعقوب في كتابه ((كتاب روائع التوجيهات من بدائع التشبيهات)) للزاهي..).[٥: ١/ ٢٠٥.]

د- منهج الثعالبي في كتاب اليتيمة/ اختطّ (الثعالبي) لنفسهِ في هذا الكتاب منهجاً مختلفاً عمّن سبقهُ من المصنّفين، من مثل ابن المعتز(ت ٢٩٦هـ) في كتابه(طبقات الشعراء)، وأبي الفرج الأصفهاني(ت ٣٥٦هـ) في كتابه (الأغاني)، ورجال الطبقات الآخرين، ومصنّفي كتب الأدب، ونقسّمُ منهجَهُ الواحد المتراص على قسمين لأغراض البحث والدراسة، وبقصد الإفادةِ لا التشويه.

أولاً- منهج الكتاب العام والمستخلص في(المقدمة) وفي مجلداته الأربعة:

انطلقَ (الثعالبي) من مقولة، الشعر هو العِلمُ الأولُ والعمدةُ عند العربِ فوضعَ اهتمامَهُ في صميم الأدب ولبابه، وبهذا فقد عنيَ بالقول أكثر مما يعنى بحال قائله .

لم يكنِ (الثعالبي) معنيّاً بجمع الأخبار ونشأة الأدباء والشعراء ومواليدهم ووفياتهم، فهناك مصنّفون ومصنّفات في تاريخ الأدب، وتراجم الأدباء ومعاجم اختصّتْ بذلك.

اتّسمَ منهجُ(الثعالبي) بالبحثِ والتحقيق في الشعراء الذين عاصروه أو سبقوه قليلاً، فأثبتَ منْ سبقَهُ شعر الشعراء السابقين وأدبهم وأخبارهم لغاية عصره (القرن الرابع ومطلع القرن الخامس الهجري)، فقد صُنّفتْ مجلّدات وكتب في عصور ما قبل الاسلام وصدر الاسلام والعباسي...الخ. وخشيَ أن تضيع فنون عصره وعيون الشعر والنثر من أدباء العصر الذي يعيشهُ ويتنفسّهُ.

عمدَ (الثعالبي) الى اعادة كتابة الكتاب مرّاتٍ عدّةٍ، يضيفُ تارةً، وينقصُ أخرى، ويمحو ويثبتُ، ويعيدُ ترصيفها ويجدّدُ تبويبها، وهذا ما يصرّحُ به في مقدّمة الكتاب: (وكتبتُهُ في مدّةٍ تقصرُ عن اعطاء الكتاب حقّه، ولا تتّسع لنوفيه شرطه..). ولذلك أعادَ كتابته بعد حين.

اشترطَ في كتابهِ، ايرادَ لبّ اللّب، وحبّة القلب، وناظر العين، وواسطة العقد، ونقش الفص.

لم يتفاعلْ اشتراطُهُ وشرطُهُ السابق هذا، مع الملوك والأمراء والوزراء، إذْ افتتحَ كتابَهُ بهم، فهو يفردُ لهم باباً، ويثني عليهم، ويبيحُ لنفسهِ أن يروي الضعيف من شعرهم، وعلّلَ ذلك أن يكونَ الجيّدُ محتاجاً الى غير الجيّد.

يُصنّفُ الشعرَ ويوزّعُهُ تاريخياً، بقولهِ في المقدمة: (كانت أشعار الاسلاميين أرق من أشعار الجاهليين، وأشعار المحدثين ألطف من أشعار المتقدمين، وأشعار المولّدين أبدع من أشعار المحدثين، وكانت أشعار المعاصرين أجمع لنوادر المحاسن..). ونستشفّ من هذه العبارات رؤية نقدية لـ(الثعالبي) تعبّرُ عن وجهة نظر خطيرةٍ في عصرهِ الذي كان يميلُ الى تقديس كلّ ما هو قديم، وتضمين كتب الفقه والتفسير واللغة والنحو أشعار الأولين واستبعاد شعر ونثر المولّدين والمعاصرين بل ورفضهما.

لم يلتزم (الثعالبي) في تقديم أو تأخير أديب بحسب ولادته أو وفاته، معللاً ذلك (وإنْ أخّرتُ متقدماً فعذري فيه أن العربَ قد تبدأُ بذكر الشيء والمقدّم غيره)، وكما قال الله تعالى: (هو الذي خلقكم فمنكم كافر ٌومنكم مؤمن) .[سورة التغابن: ٢.]

إنّ المؤلفَ اعتمدَ في تراجم اليتيمة على مشافهة منْ يترجمُ لهم، فإنْ تعذّرَ ذلكَ اعتمدَ على رواةٍ شافهوا الشعراء وسمعوا منهم.

ثانياً- منهج التقسيم البيئي/ (الثعالبي) هو أوّلُ مصنّف اعتمدَ في تراجم كتابه وتقسيمه على البيئات. ويعتمدُ المنهجُ البيئي(الاقليمي) على أسس من دراسة البيئة العامة التي تستندُ على الثلاثي (المكان- الزمان- المجتمع)، مع دراسة ما يرتبط بهذا الثلاثي من عوامل سياسية واجتماعية وفكرية وأخلاقية، ومن ثم ارتباطها بدراسة بيئة الأديب نفسه. لقد علّل الدكتور (الجادر) في سبب تبنّي (الثعالبي) هذا المنهج بأنهُ جاءَ ردّ فعلٍ عمّا كانت تعاني منه الدولةُ الاسلاميةُ من حال التفكك والتمزّق وتعدّد الدويلات والإمارات، ومع هذا التفكك تعدّدتِ القومياتُ والمذاهبُ بعدما كانت موحّدةً متجانسةً في رباطٍ واحدٍ وفي بيئةٍ واحدةٍ .[٢: ٢٠٥.]

وهُنا نفهم، أنّ (الثعالبي) بهذا التقسيم البيئي، أرادَ أنْ يوحّدَ الأمصارَ والأقطارَ المتفرقةَ ويجمعَ منها المتقاربَ الذي لديهِ مشتركات في اقليم متشابه التضاريس والأنواء مما يجعل تأثيره واحداً في النتاج الأدبي، وعلى نفسية الأديب والذوق الأدبي عموماً، وهذا التأثير والتأثر لا ينحصرُ في فترةٍ محددةٍ بل يمتدّ لكل العصور. وهكذا كان لظهور هذا المنهج مسبباته وظروفه وما أملتهُ الأحداث السياسية المتسارعة في القرن الرابع الهجري وبداية القرن الخامس الهجري، وهي الفترة التي عاشها المؤلف وأنتج فيها كتابه (يتيمة الدهر ومحاسن أهل العصر) .

أشارَ (الثعالبي) الى ارتباط القريحة بالبيئة، واختلاف النّص في البيئة المجدبة والبيئة الخصبة، واختلاف الذوق عند الملوك والسلاطين والأمراء في أدب بيئاتهم، إذْ تنوّع البلاط والحاشية، وتنوّع الفواكه والمشارب والمهرجين والجواري، فما تقعُ عليه عين صاحب الجاه وما يجعلهُ معجباً ومتأثراً بهِ يختلفُ عن السوقة.. الخ.

أحاطَ (الثعالبي) بتأثير البيئة في المخاطبات بين مختلف الشرائح والطبقات، فأصحاب الجلالة والأبهة والتعظيم يكون خطابهم حسب مكانتهم ودرجاتهم، وهكذا نجدهُ لم يدعْ صغيرةً ولا كبيرةً إلا وضعها ضمن منهجه في التقسيم البيئي وتأثير البيئة بل القريحة والنفس واللسان.

هـ- قيمةُ الكتاب/ تُعدُّ (اليتيمةُ) كتاباً ثميناً قاربَ حدّ الشمول في ذكره لأدباء القرن الرابع الهجري وما اتصلَ بهِ، ويبقى العُمدة لمن أرادَ البحث في أدب هذه الحقبة، ولولاهُ لبقيت أخبارُ أولئك الشعراء والمنشئين وأقوالهم مبدّدةً غير مضمومة في كتابٍ يجمعُ شملها ويضمّ نشرها ويقيّدُ شواردها. لقد افتخرَ(الثعالبي) بكتابه (اليتيمة) في مقدمة كتابه بقوله: (..وأنا لا أحسبُ المستعيرين يتعاورونه، والمستنسخين يتداولونه حتى يصيرَ من أنفس ما تشحّ عليه أنفس أدباء الأخوان، وتسيرُ به الرّكبان، الى أقاصي البلدان..) .[٥: ١٨/١.]

وأكّدَ قيمة كتاب (اليتيمة)، ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ)، أنهُ رأى نسخةً من (اليتيمة) بيعت بثلاثين ديناراً نيسابورية، ونقلَ منها العديد من التراجم، كما فعل ذلكَ (ابن خلكان ت٦٨١هـ)،

والسبكي (ت ٧٧١هـ). ولم يقتصرْ ذكر قيمة الكتاب(اليتيمة) من المؤرخين القدامى، فذكرَ قيمتهُ المحدثون منهم: الدكتور زكي مبارك (ت ١٩٥٢م)، صاحب كتاب النثر الفني في القرن الرابع الهجري، بقوله: (منْ الذي يستطيع أن يحدد خسارة الأدب لو ضاعت اليتيمة أو ثمار القلوب.) .[٦: ٥٣٤].

والدكتور (مصطفى الشكعة ت ٢٠١١م) يقول: (اليتيمة تعتبر أولى طبقات الشعراء ذات الصفة الموسوعية) . وانبهر بها وبقيمتها (الدكتور عمر الدقاق)، والدكتور(أمجد الطرابلسي)، والدكتور (طه حسين) .[٢: ٩٣-٩٤.]

المبحث الثاني

البيئة في أشعار كتاب (اليتيمة)

سيكونُ هذا المبحث الجانب التطبيقي للبحث، نؤشرُ فيه الأبيات التي هي موطن اهتمامنا، ومنها ننطلقُ في أهمية البيئة، ومدى تأثيرها على المجتمع، وما أنفقه الشعراء في الوصف والتصوير في مجمل كتاب (يتيمة الدهر ومحاسن أهل العصر) بمجلداته الأربعة، وما انعكس من جمالٍ وقبحٍ في هذا الأثر، ومن تقلبات وظواهر طبيعية، تختلف بين العمران والبادية، بين الصحراء والقرى.

تعريف (البيئة)/ لُغةً عرّفها ابن منظور، في لسان العرب(٨: ١/ ٣٩)؛ والجوهري في مختار الصحاح (٩ :٣٧/١)؛ والفيروزآبادي في القاموس المحيط(١٠ : ٩/١)؛ والزبيدي في تاج العروس(١١ :٤٧/١): تبوّأتُ منزلاً:أي نزلتُهُ، وبوّأتُ للرّجلِ منزلاً، وبوّأتهُ منزلاً، بمعنى: هيّأتُهُ ومكنتُ فيهِ. واستباءة أي اتّخذهُ مباءةً، وهو بيئة سوء، مثال: بيعة، أي بحالة سوء، وانهُ لحسن البيئة. وقوله تعالى ((والذين تبوءوا الدارَ والإيمان))] القرآن الكريم: [سورة الحشر:٩]، جعلَ الإيمان محلاً لهم على المثل، وقد يكونُ أرادَ: وتبوءوا مكانَ الايمان وبلد الإيمان.

واصطلاحاً: (إنّ علمَ البيئة هو العلم الذي يدرس شروط أو ظروف وجود الكائنات الحية والعلاقات المتبادلة فيما بينها من جهة، وعلاقتها بالوسط الذي تعيش فيه من جهة أخرى).

[٧: ١٢٤.]

قسّمنا البيئةَ في هذا المبحث على قسمين:

أولاً- البيئة الصامتة/ ونحنُ نقرأُ أشعار محاسن أهل العصر في (اليتيمة) نتنفّسُ البيئةَ بكل معانيها ومسمّياتها، فهي مبثوثةٌ في الشعر والنثر، والبيئة الصامتةُ التي نؤشّرُها هن تتحرّكُ وتنطقُ وتُفصحُ عن أثرِها، ومن صورِ هذهِ البيئة:

آ- الكواكب/ عرفَها العلماءُ العرب والمسلمين، وأسسوا بعض علومهم فيها، ومنها (علم الفلك)، وكانوا يتّخذونها دليلاً في سيرهم ليلاً في البر والبحر، وسمّوا بعضها بأسماء مختلفة وعشقوها، ووضّحوا مدى علمهم بتلك الكواكب ومنازل القمر، فكان الهلال والقمر والبدر، وأرّخوا تواريخهم وجعلوا أشهرهم وايامهم عليها، وذكروا (المريخ، والمشتري، والثريا..).

وتجاوزتْ معارفُهم الى الظواهر الطبيعية التي تحدث وتتزامن مع حركة الشمس والقمر في ظاهرتي (الخسوف والكسوف). من هذا نفهم مدى الوعي لدى انسان تلك الحقبة، وكيف يتعاملُ مع ما يدورُ حوله فيوظّفهُ أحسنَ توظيف لخدمتهِ في ميدان العلوم والتجارة، ونقرأ بعض هذه الأبيات، التي وردتْ فيها الكواكب، ومنها أشكال القمر ،في كتاب (اليتيمة) :

قول الشاعر(ابن المعتز ت ٢٩٦هـ) – من البحر الكامل-:] ٥: ١/ ٤٤]

فانظرْ اليهِ كزورقٍ من فضّةٍ قد أثقلتْهُ حمولةٌ من عنبرِ

قول الشاعر (منصور بن كيغلغ ت٣٥٠هـ) – من البحر الكامل-:]٥: ١/ ١٠٨]

والبدرُ يجنحُ للغروبِ كأنهُ قد سُلّ فوقَ الماءِ سيفاً مذهّبا

وفي ذكر (المريخ والمشتري):

- قول (القاضي التنوخي ت ٣١٨هـ) – البحر السريع-:]٥: ٢/ ٣٣٨]

كأنّما المريخُ والمشتري قُدّامهُ في شامخِ الرّفعه

منصرفٌ بالليلِ عن دعوةٍ قد أسرجوا قُدّامهُ شمعه

ب- المياه/ للماء أشكالٌ وهيئاتٌ تتنوّعُ في البيئةِ، منهُ البحار والأنهار التي وضعها الله- سبحانه-، وجعلَ مساراتها ومنابعها ومصبّاتها، منذ بدء الخليقة، وتكوّنت على تلك الأنهار

أولى الحضارات في العالم(وادي الرافدين، وادي النيل، ..) والعديد من المدن التي ما زالت تحتفظُ بمكانتها على مجاري الأنهار. ومن أشكال المياه الأخرى، الأحواض والبُرك والنافورات، فتشكّلَ الماءُ بحالاته الثلاث، فكان الثلج، والفقاعة، وكان البخار والضباب .

صورُ الماءِ هي صورُ الحياةِ بمختلف تكويناتها، وللبيئة أثرها في تشكّل وتشكيل المياه، حسب وعورة وسهولة التربة والتضاريس في المناطق المرتفعة والجبال وفي الهضاب والسهول والوديان (الشلالات، العيون، الواحات، الخلجان، البحار،المضايق،..)..فكلما كانت مصادر المياه نظيفة وعذبة كلما كانت البيئة سليمة ومعافاة وخالية من الأوبئة والأمراض، فتكون الحياة صافية كالزُلال، فتأثيرُها ليسَ على الانسانِ حسب،بل يمتدّ ليشملَ الزروعَ والحيوانَ. ومن الأشعار التي وردتْ في المياه وأشكالها في كتاب (اليتيمة):

قول (أبي فراس الحمداني ت ٣٥٧هـ) في وصف بركة ماء ، – البحر الكامل–:[٥: ٧٢/١]

أنظرْ الى زهرِ الربيعِ والماءُ في بُركِ البديعِ

واذا الرياحُ جرتْ عليهِ في الذهابِ وفي الرجوعِ

الشاعر أبو الحسن السلامي(ت ٣٩٣هـ)، يصفُ فقاعة ،– من الوافر–:[٥: ٢/ ٤١٨]

شُغفتُ بدايةً لي أشتهيها وما فيها عن الوصلِ امتناعُ

ببارِدةِ المجسّ وما اقشعرّتْ معصّبةٌ وليسَ بها صُداعُ

وقول (الصاحب بن عبّاد ت٣٨٥هـ)، في الثلج ، – من البحر الخفيف–:[٥: ٢/ ٤١٨]

أقبلَ الثلجُ فانبسطْ للسرورِ ولشُربِ الكبيرِ بعدَ الصغيرِ

أقبلَ الجوُ في غلائلِ نورٍ وتهادى بلؤلؤٍ منثورِ

ج– الأنواء/ تزخرُ البيئةُ بألوان ومتغيرات المناخ والأحوال الجوية، وهذه الأنواء هي التي تلقي بظلالها على البيئة وتزخرفُ وتزيّنُ الحياةَ بصور وحلل جميلةٍ تارةً، وصورٍ مخيفةٍ تارةً أخرى، فبين الغمام والمُزن والمطر وقوس قزح، وبين الريح العاتية والبرق والرعد والزلازل والبراكيف

والعواصف والأعاصير، تحدّد الأنواء طبيعة الإقليم والمجتمع وطريقة عيشه ومستوى ونوع انتاجه وعمله ونشاطه.

أبو بكر الخوارزمي(ت ٣٨٣هـ)، وصف الغمام ، –البحر الكامل–: [٥: ١/ ١٠٤]

أَغُمامُ ما يُدريكَ ما أفعالُنا والخيلُ تحتَ النقعِ كالأشباحِ

أبو القاسم الزاهي(ت ٣٥٢هـ)، في وصف الريح والبرق ،–البحر البسيط–:[٥: ١/ ٢٤٧]

الريحُ تعصفُ والأغصانُ تعتنقُ والمُزنُ باكيةٌ والزهرُ معتبقُ

كأنما الليلُ جفنٌ والبروقُ لهُ عينٌ من الشمسِ تبدو ثمّ تنطبقُ

أبو سعد بن نصر بن يعقوب(ت ٤٠١هـ)، في وصف الزلزلة،–بحر الرمل:–

فقد ارتجّتْ بنا الأرضُ ضُحىً كإرتجاجةِ الزئبقِ المنسوبِ

وكأنّ الأرضَ في ارجوحةٍ وكأنـا فوقهـا في لولبِ

د– الجسر/ شكل من أشكال البيئة الصامتة، وقد اكتسبت الجسور تصاميم هندسية تشير الى حضارة المكان، تساعدُ الناسَ على العبور الى للضفاف الأخرى، وتُعتبرُ مثل هذه الأشكال حماية للبيئة والحاضرة وحماية للأنهر والجداول التي توضعُ عليها.

قول الشاعر(أبو فراس الحمداني) ، بحر الرجز،: [٥: ١/ ٧٢]

كأنما الماءُ عليهِ الجسرُ درجُ بياضٍ خُطَّ فيهِ سطرُ

كأننا لمّا تهيّأ العبر أسْرةُ موسى حينَ شُقّ البحرُ

هـ– كانون النار/ صورةٌ من صور الترف الحضاري، وما تمثلُهُ من حالة جديدةٍ لكسب الدفء، أصبح ركناً من أركان البيت ليوفر مكاناً لإجتماع العائلة واستخدامه لنشاطات أخرى.

قول الشاعر السّري الرّفاء (ت ٣٦٦هـ)، – البحر المتقارب–: [٥: ١/ ١٣٨]

وذو أربعٍ لا يطيقُ النهوضَ ولا يألفُ السيرَ فيمن سرى

نحملهُ سبجاً أسوداً فيجعلهُ ذهباً أحمرا

و- المدخنة/ تصاميم صحية، في البيوت وبعض المحال، الغرض منها تسريب واخراج الهواء الفاسد والدخان الناجم من وسائل التدفأة ووسائل الطبخ. هذا التصميم الهندسي البيئي يهدفُ الى حماية صحة الانسان والحيوان.

قول الشاعر (أبو اسحاق الصّابي ت٣٨٤هـ) ،- البحر الطويل-: [٥: ١/ ٢٦٥]

ومكروبةِ الأحشاءِ يعلو زفيرُها وتعصفُ ريحُ الطيبِ بين فروجِها

اذا روّحتْ عن نفسها بخروجها للنّفسِ مني راحةً في ولوجها

ز- الناعور/ صورة من صور أساليب الرّي المتطورة، والمبتغى منها ايصال مياه السقي الى المساحات الزراعية، وتُستخدمُ أيضاً لأغراض ارواء الانسان والحيوان.

قول الشاعر (سليمان بن حسّان النصيبي ت ٣٦٢هـ)- البحر المنسرح-: [٥: ١/ ٤٢٦]

كمْ نعرتْ بالحيّ ناعورةٌ حنينُها كالبربطِ الناعرِ

فتارةً تحسبُها قينةً تُردّدُ الزّمرَ على الزامرِ

وتارةً ثكلى جرى دمعُها في مستهلٍّ واكفٍ ماطرِ

ح- المنارة/ اهتمّ الانسانُ بهندسةِ وعمارة المنارة للمساجد، حتى أخذ كل شكل يؤرخُ عصرا ومرحلةً من التاريخ، فأضحى لكل عصرٍ شكل هندسي يعتبر هويته، من حيث النقوش والزخارف والخط ونوع الآجر وطول المنارة، ومن الآثار الباقية هناك عدد كبير من الأضرحة والمآذن والجوامع والتكيات، ودور العبادة القديمة الاسلامية والمسيحية واليهودية والبنايات التابعة للأديان والطوائف الأخرى في البلاد الاسلامية.

-قول أبي العباس النامي(ت ٣٩٩هـ)، -بحر الرجز- : [٥: ١/ ٢٧٤]

ساميةٌ في الجوِ مثلُ الفرقدِ قاعدةٌ فيهِ وإنْ لم تقعدِ

يكادُ عاليها - وإنْ لم يبعدِ- يغرفُ من حوضِ الغمامِ باليدِ

ط- القلم/ للقلمِ دورٌ كبيرٌ منذ بدء الحرف الأول، وفي الكتب المقدسة، وألوان المعرف والعلوم، وما أسهم به من نقل صور وحياة وأفكار، واتّخذَ صوراً مختلفة منذ استخدام الريشة، والمداد وألوان الأحبار، ونوعية الخطوط، ورسم الحروف.

-قول الشاعر (سريّ الرّفاء)- البحر الكامل-: [٥: ١/ ٢/ ١٣٢]

وفتىً إذا هزّ اليراعَ حسبتُهُ لمضاءِ عزمتهِ يهزّ مناصلا

من كل ضافي البردِ ينطقُ راكباً بلسانِ حاملهِ ويصمتُ راجلا

-قولُ (أبو عبد الله محمد بن ابراهيم التاجر) : [٥: ٤/ ٢٤٤]

ناطقٌ ساكتٌ أصمٌ سميعٌ قلقٌ ساكنٌ وقوفٌ ماضي

ي- الشطرنج/ وهي من الملاهي، وهي لعبةُ الملوك والأمراء والخاصّة.

-قول الشاعر (السّري الرّفاء) - البحر الكامل- : [٥: ٢/ ١٨٣]

يُبدي لعينيكَ كلّما عاينتُهُ قرنين جالا مقدماً ومخاتلا

فكأنّ ذا صاحٍ يسيرُ مقوماً وكأنّ ذا نشوانَ يخطرُ مائلا

ك- السفينة/ قول أبي الحسن بن الوزير الحافظ، - البحر الكامل- :[٥: ١/ ٤٣٦]

قد قلتُ إذ سارَ السفينُ بهم والسوقُ ينهبُ مهجتي نهبا

لو أن لي عزّاً أصولُ بهِ لأخذتُ كلّ سفينةٍ غصبا

ل- الشمعة/ قول الشاعر محمد بن الأكتمي - مجزوء الرجز-:[٥: ١/ ٤١٠]

باكيةٌ ضاحكةٌ خدّامُها جُلاّسُها

مظهرةٌ أنوارُها إنْ جُزّ منها رأسُها

كأنها عاشقةٌ تُذيبُها أنفاسُها

-قول أبي الحسن بن أبي ياسر- البحر المتقارب-: [٥: ١/ ٤١١]

وهيفاءُ من نُدماءِ الملوكِ تزيدُ فينقصُ من قدرِها

إذا ضحكتْ جنحَ داجي الظلامِ بكتْ فجرى الدمعُ من نحرِها

ثانيــاً- البيئـةُ الحيّـة

البيئةُ الحية، وتشملُ كل كائن حي من الحيوان والنبات في البر والبحر، فقد رافق البيئة والانسان منذ الأزل تلك المخلوقات التي سخّرها الله -سبحانه- لخدمة وديمومة الحياة بأشكالها وأصنافها، بل تجد هذا الترابط قد صوّرهُ ويذكّرُنا القرآنُ بهِ- بني البشر- منذ أن أرسلَ الرحمن -سبحانه- الرسل والأنبياء والكتب السماوية. فقد كان الغرابُ حاضراً في قصة(هابيل وقابيل)، والتفاحة التي ارتبطت بقصة(آدم وحواء)، وسيدنا ابراهيم(عليه السلام) بقصته في تقطيع الطيور ووضعهن في رؤوس الجبال، وكان الهدهدوالنمل حاضرين مع سيدنا (سليمان)-عليه السلام-، وقصّة سيدنا (يونس – عليه السلام-) مع الحوت، وقصة سيدنا (نوح-عليه السلام-) في جمعه من كل زوجين اثنين من الحيوانات والطيور في سفينته، وسيدنا موسى وهارون -عليهما السلام-مع ناقته، ثم قصّة نبينا الأكرم المصطفى-صلى الله عليه وسلّم- مع الحمامة والعنكبوت.. وغيرها الكثير.

وضعَ المُشرّعُ في الاسلام الأحكامَ التي تحافظُ بيئةِ الحيوان والنبات، إذْ نلاحظُ أن العديدَ من الأصنافِ انقرضتْ من حيوان ونبات، بسبب تقادم الزمن والتغيّر البيئي والمناخي، وبسبب عبث الانسان في الصيد الجائر واللهو المؤثر في ديمومة حياة الكثير من الأصناف من الحيوان والطيور والأسماك، وقد حرّمَ المشرّع منذ القدم ومنذ كتابة القوانين الوضعية، حرّمَ الصيد في مواسم تكاثر الأنواع والأصناف المختلفة.

إنّ الكائناتِ الحيّةَ من حيوان وحشرات ونبات خلقها سبحانه، بشكل متوازن، فتوازن البيئة والطبيعة مرتبط بوجود جميع هذه الكائنات، فما خلق الله- سبحانه- أي مخلوق كبير أو صغير، أو حتى ما لا يُرى بالعين المجردة، لم يخلقه عبثاً -سبحانه- بل خُلقَ ولهُ دور في الحياة، وفي سلسلة وحلقات التكاثر وديمومة الحياة. وللفترة الضوئية تأثيرٌ مباشرٌ على سلوك الكائنات الحيّة منها على سبيل المثال، هجرة الطيور والحشرات والأسماك، من بيئةٍ الى أخرى، كذلك تتحكم الفترة الضوئية بالعديد من الدورات التناسلية في الثدييات والطيور، عن

طريق التحكم في الانتاج الهرموني لديها وخاصة الكائنات البحرية، وبالنسبة للنبات فطريقة تأثير النباتات والحيوانات كل منها على الآخر وكذلك حل مشاكل الغابات ونمو المحاصيل وحفظ الأنواع والتحكم بالحشرات والأمراض التي تفترس النباتات .

أولا- الحيوان

-الغزال

-قول أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، -البحر الكامل-: [٥: ١/ ١٠]

يأبى غزالٌ صدّ بعدَ وصالهِ وزها عليّ بحسنهِ وجمالهِ

-قول أبي الفتح عثمان بن جنّي النحوي، - مجزوء الوافر- : [٥: ١/١٢٤]

غزالٌ غيرُ وحشيّ حكى الوحشيّ مقلتَهُ

رآهُ الوردُ يجني الوردَ فاستكساهُ حُلّتَهُ

-الذئب

-قول الوزير ابن شُهيد (الوزير أبو عامر احمد بن عبد الملك بن شُهيد)، - البحر الطويل-: [٥: ٢/٤٤]

أزلّ كسا جثمانَهُ مستتراً طيالس سودٌ كالدجى وهو أطلسُ

فدلّ عليهم لحظَ خبٍّ مخادعٍ ترى نارَهُ من ماءِ عينيهِ تقبسُ

-كلاب الصيد

قول السري الرّفاء، -البحر الطويل-: [٥: ٢/ ١٨٠]

غدوتُ بها مجنونةٌ في اعتدائها تلاقي الوحوشُ الحين عند لقائها

لهُنّ شياتٌ كالزوامجِ أصبحت مولّعةٌ ظلماؤها بضيائها

-الفرس

قول ابن نباتة السّعدي(ت ٤٠٥هـ)، -من الوافر-:] ٥: ٢/ ٣٩٣]

وأدهمُ يستمدّ الليلُ منهُ وتطلعُ بين عينيهِ الثُريّا

سرى خلفَ الصباحِ يطيرُ مشياً ويطوي خلفهُ الأفلاكَ طيّا

ثانياً- الطيور

- لببغاء

قول أي الفرج الببغاء، في صفة الببغاء، -بحر الرجز-:]٥: ١/ ٢٦٩]

أنعتُها صبيحةً مليحةً ناطقةً باللغةِ الفصيحةْ

غدتْ من الأطيارِ، واللسان يوهمُني بأنها إنسانْ

-الكروان

قول أبي محمد القاسم بن أحمد الرّسي، -البحر الوافر-:] ٥: ١/ ٤٣٠]

إذا الكروانُ صاحَ على الرمالِ وحلّ البدرُ في بُرجِ الجمالِ

-الحمامة

قول أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي،- البحر البسيط-:] ٥: ٢/ ٩]

ونائحٍ في غصونِ السدرِ أرّقني وما عنيتُ بشيء ظلّ يعنيهِ

مظوّقٌ بعقودٍ ما تزايلهُ حتى تزايلهُ إحدى ترامِيهِ

-قول ابن شُهيد، - البحر الكامل- : [٥: ٢/ ٥٠]

ما أطربتْ فوقَ الغصونِ حمامةٌ إلاّ رأيتُ دموعَ عيني تُسكبُ

-الديك

قول الشاعر (السّري الرّفاء)، -البحر الكامل-:] ٥: ٢/ ١٧٩]

كشفَ الصباحُ قناعَهُ فتألقا وسطا على الليلِ البهيمِ فأطرقا

ثالثاً- الحشرات

-البراغيث

قول السّري الرّفاء،- بحر الرجز- :]٥: ١/ ١٧٩]

وليلةٍ من نقماتِ الدهرِ قطعتُها نزرَ الكرى والصبرِ

مكلّم الظهرِ جريحَ الصدرِ مقسّماً بينَ أعادٍ خُزرِ

-الزنبور

قول أبي الحسن السلامي، – البحر الطويل- ، [٦: ٥٣٤].

ولابسٍ لونٍ واحدٍ وهو طائرُ ملوّنةٌ أبرادهُ وهو واقعُ

إذا حكّ أعلى رأسه فكأنما بسالفتيهِ من يديهِ جوامعُ

رابعاً- النباتات

-الرّوض

قول الشاعر (الخبّاز البلدي ت ٣٨٠هـ)، -البحر البسيط: -

وروضةٍ باتَ طلّ الغيث ينسجها حتى اذا نجمتْ أضحى يدبجُها

إذا تنفّسَ فيها ريحُ نرجسِها ناغى جنيّ خزامِها بنفسجُها

- الباقلاء

قول الشاعر الثغري الكاتب، – من الوافر:

فصوصُ زبرجدٍ في غُلفِ دُرٍّ بأقماعٍ حكتْ تقليمَ ظُفرِ

وقدْ صاغَ الإلهُ لها ثياباً لها لونانِ من بيضٍ وخضرِ

-الوردُ وأنواعُهُ

قول الوزير المهلبي، – البحر الكامل :

الوردُ بينَ مضمّخٍ ومضرّجٍ والزهرُ بينَ مكلّلٍ ومتوّجِ

والثلجُ يهبطُ كالنثارِ فقمْ بنا نلتذّ بابنةِ كرمةٍ لم تُمزجِ

-الفواكه

قول الصاحب بن عبّاد، في النارنج، -البحر الطويل: -

بعثنا من النارنجِ ما طابَ عُرفُهُ فقيلَ: على الأغصانِ منهُ نوافحُ

كراتٌ من العقيان أُحكِمَ خرطُها وأيدي الندامى حولهنّ صوالحُ

– قول أبي الحسين محمد بن عمر الثغري الكاتب، في الرّمان،– البحر الوافر :–

ورمانٍ رقيقُ القشرِ يحكي ثديّ الغيدِ في أثوابِ لاذِ

إذا قشّرتُهُ طلعتْ علينا فصوصٌ من عقيقٍ أو نخاذِ

–قول الصاحب بن عبّاد، في التين، –البحر الكامل: –

تينٌ يزينُ رواؤهُ مخبورهُ متخيّرٌ في وصفهِ يتحيّرُ

عسلُ اللعابِ لديهِ مما يُجتوى وجنى النخيلِ لديهِ مرّ ممقرُ

– قول أبي العلاء السروي، في التّفاح، – البحر الطويل :–

وتفّاحةٍ قد همتُ وجداً بظُرفِها فما شعرُ ذي حذقٍ يحيطُ بوصفِها

أشبّهُ بالمعشوقِ حمرةَ نصفِها وبالعاشقِ المهجورِ صفرةُ نصفِها

الخاتمة

سَطّرَ (الثعالبي) كتابَهُ (يتيمة الدّهر في محاسنِ أهل العصر) بعنايةٍ ودرايةٍ ووعي، واختارَ منهجَهُ المتميز في وضعِ أساس صلبٍ لتراجمَ وأشعار أهل عصره، فكانَ (الثعالبي) ببلوغرافيا، وناقدا وأديبا، ولغوياً، فضلاً عن كونهِ مؤرخاً لعصرٍ يمدّ بامتداد القرنِ الرابع الهجري وبدايات القرن الخامس. درسَ المحققون والباحثون والأكاديميون، هذا الكتاب المهم (اليتيمة) ، كلّ باختصاصهِ وبمختلف المشارب والاتجاهات الكلاسية والحداثوية، واليوم لعلنا نكشفُ جديداً في هذا الكتابِ المهم، الذي يحوي كنوزاً لعصرٍ مائزٍ في التاريخ العربي الاسلامي. ومن نتائج هذا البحث:

البيئةُ حاضرةٌ في هذا الكتابِ بأجزائه الأربع، من الغلافِ الى الغلاف، فهو صورةٌ ناصعةٌ للعصر. حضرت في الكتاب(اليتيمة) أركان البيئة: الأرض– البحر–المناخ –الأفلاك، والحاضرةُ والبداوةُ، وتقسيمات الخطط، في أجواء الملوك والوزراء والخاصّة، وبيئة العامّة بكل ما تحملهُ من معانٍ اقتصادية واجتماعية؛ البيئةُ التي تتمدّدُ وتبعثُ عنفوانها مع الجذوة والاستقرار، ثم تتدهور وتتجزأ وتبعثرُها أهواء وطيش العابثين والضعفاء من الرموز.

ونجدُ البيئةَ بصورتِها النقيّة مع الأجواء التي تبعثُ على ازدهار الرياض والبساتين، حيث تدورُ النواعير، وتكثرُ المحاصيل والفواكه بأشكالها التي يصفُها الشعراءُ، وما يصفون ألوان الورد والبُرك والأحواض الجميلة والطيور، وكانت صور البيئة بحيوانها وحشراتها، وصور الدور، وتخطيط المدن حسب الرتب والمهن، والاهتمام الذي تعنى به السلطة في العناية بالجانب الصحي والبيئي على مستوى كل فرد.

يؤشرُ (الثعالبي) من خلال الأشعار المختارة في كتابه (اليتيمة)، الآثارَ الناتجة من الأنواء، كالزلازل والفيضانات والعواصف والحرائق، فالأنواء والحروب المتكررة ينتجُ عنها ضرراً بيئياً خطيراً، لوجود الأعداد الكبيرة من الموتى، فتظل الجثث لأيام طويلة في الشوارع والبيوت، وما ينعكس في التأثير الصحي والبيئي على كساد الاقتصاد والتجارة وظهور حالات المجاعة والفقر، وشيوع عمليات السرقة والسلب والنهب.

وفي دراستنا للأشعار لاحظنا وجود مظاهر حضارية تدل على التقدم في ذلك العصر باستخدام الأساليب والطرق المختلفة لمجابهة ارتفاع أو انخفاض درجات الحرارة باستخدام الفضاءات في بناء الدور، وطرق بناء الدور والباحات الكبيرة وارتفاعات السقوف، والشبابيك والمداخن والمدافىء والمروحة، والحمّامات، واستخدام النقوش، وكيفية مجابهة موجات البرد والثلوج باستخدام كوانين النار ووسائل التدفأة.

يُظهرُ لنا كتاب (اليتيمة) استخدام الطرق العصرية المتطورة –آنذاك– لسقي المزروعات مثل النواعير، والسدود والقنوات، واستخدام مقاييس المياه لقياس ارتفاع مناسيب الأنهر.

وجمعَ (الثعالبي) الأشعارَ التي ذكرت البيئة في قسميها (البيئة الصامتة) وما تضمهُ من (الكواكب/ المياه/ الأنواء/ المدخنة/ المنارة...)؛ و(البيئة الحيّة) وما تضمهُ من (حيوان/ نبات/ حشرات...). وتوصلنا الى: تأثير البيئة في أشعار وقرائح شعراء كتاب (اليتيمة) بوجود الجبال والهضاب والبحار.. ووصف الظواهر الجوية(الخسوف/ الكسوف/ قوس قزح).

ونلاحظُ أثر البيئة في استخدام الألفاظ، فألفاظ شعراء البادية والقريبين من خطط الحجاز والجزيرة مختلفة عن ألفاظ أقاليم خراسان والجبل وما وراء النهر، ونجد اختلاف اللفظ عند شاعر واحد في انتقاله بين الأقاليم مثل (المتنبي، والباخرزي).

ظهرت ألفاظ ومصطلحات ومفردات جديدة استخدمها الشعراء نتيجة التطور البيئي مثل استخدام (الشمعة- السفن- المنارة- المدخنة- الجسر- الشطرنج- الناعور..). كما ظهرت أغراض جديدة في الشعر العربي، وفي بناء القصيدة الكلاسيكية، أخذ بالانزياح نحو التجدد بتأثير البيئة، إذْ أصبحت المقدمات للقصائد وصفاً للطبيعة وللأجواء، ثم ذكر الغرض (المدح/ الفخر/ الرثاء...).

كما ظهرَ غرضٌ جديد في الشعر العربي ، غرض وصف المدن، وغرض رثاء المدن التي تنتهي نتيجة الحروب والكوارث الطبيعية. ونقرأ أيضاً في كتاب(اليتيمة) اختلاف الجانب البلاغي في الشعر والنثر، فكانت بيئة العراق والحجاز والشام تتسم باستخدام فنون البديع والزخرفة اللفظية والسجع في النثر(في القرن الرابع الهجري)، ولم يلتزم شعراء الأقاليم الأخرى بهذه الصور البلاغية، فكانت كتاباتهم رقيقة وشفيفة.

تم تأليف مصنّفات في الطبيعة، مثل الورد وألوانه وأنواعه، مثل كتاب (الموشّى)، وكتب في المفاخرة بين الورد والنرجس لإبن أبي طاهر.

في كتاب (اليتيمة) نلاحظُ تأثر الشعر بأنواع الأطعمة والفواكه، وصنوف الحلوى والمرققات والقطائف. وتأثرَ الشعرُ في القرن الرابع الهجري، بأنواع اللهو والألعاب كالشطرنج والنرد .

وظهر في الشعر العربي غرضاً مهماً يمثل واقع العصر وأهله وهو غرض الصيد والطرديات، وفيهما وصف لمبارزة الوزراء والأمراء والقادة للوحوش والطيور .

ان الاختلاف البيئي على مساحة الدولة الاسلامية أدى الى اختلاف الأفكار والقيم والمزاج والذوق والثقافة، بين اقليمٍ وآخر، فنظرةُ شعراء البادية والجزيرة للمطر-مثلا-، تختلفُ عن

نظرة شعراء اقليم خراسان والجبل وغيرها، حيث بلاد فارس الينابيع والعيون، فهم لا يرغبون بالمطر، في حين يفرحُ ويبتهجُ شعراء البادية ويعتبرونه حدثا مهماً.

وفي اقليم خراسان، وفارس، وجرجان، وما وراء النهر، يستخدمُ الشعراءُ والكُتّابُ، الألقابَ الفخمة والألفاظ المفخّمة في مقدمات المكاتبات والمخاطبات والرسائل وخواتيمها. ويستخدمون كذلك المراسم في الاستقبال والجلوس والمحادثة والأكل، في حين لا نجد مثل هذه الفعاليات في البادية والبيئة الشرقية. وفي ذلك تأثير على نتاج الشعر والنثر إبانَ (عصر القرن الرابع وبداية القرن الخامس الهجريين) فما ينتجُ عن شعراء وكُتّاب البادية يصدرُ عن عقول مجرّبة، وما ينتجُ من شعر ونثر في اقليم خراسان والجبل وجرجان هو نتاج عقول مثقفة.

وفي الختام، نجدُ البيئة يعانقُها الشعراء تارةً وتشكل مصدر إلهامهم، فتكون قوافيهم وموسيقى حروفهم، وتصدح قصائدُهم مع الطيور، وتتلون بألوان الزهر، وتارةً أخرى تتحول القصائدُ رعداً وبرقاً وزلازلاً وحروباً..

ولكنها أقاليم تتوحّدُ تحت خيمة (الثعالبي) الحالم بإقليم يمتد من المشرق الى المغرب ليرمَ خارطةً جديدةً تشرقُ بها شمسٌ لا تغيب في أرض المسلمين.

Journal of Renewable Development
مجلة التنمية المتجددة

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١-البغدادي، اسماعيل باشا (ت١٣٣٩هـ)،هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، دار احياء التراث العربي-بيروت.

١٠- الفيروز آبادي، مجد الدين(ت٨١٧هـ)،القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة-بيروت،ط٨، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

١١- الزبيدي، محمد مرتضى(ت١٢٠٥هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، مكتبة الحياة-بيروت.

٢-الثعالبي، الجادر، محمود عبد الله، ناقداً وأديباً، دار الرسالة للطباعة -بغداد، ط١، ١٣٩٦هم ١٩٧٦م.

٣-الباخرزي (ت ٤٦٧هـ/١٠٣٧م)، دمية القصر وعصرة أهل العصر، تحقيق: سامي مكي العاني، مكتبة دار العروبة- الكويت، ١٩٨٥م.

٤-ابن كثير (ت ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، تحقيق عبد الله التركي، دار هجر للطباعة والنشر،ط١، ١٩٩٧م.

٥-الثعالبي (ت٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م)، يتيمة الدهر ومحاسن أهل العصر)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٢، القاهرة، ١٩٥٦م.

٦-زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٣م.

٧-المعجم الموحّد لمصطلحات علم الأحياء، قائمة اصدارات سلسلة المعاجم الموحدة ، تونس، مكتب تنسيق التعريب، ١٩٩٣م.

٨-ابن منظور(ت٧١١هـ/١٣١١م)،لسان العرب، دار صادر-بيروت،ط١.

٩-الرازي(ت ٦٦٦هـ)، مختار الصحاح، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية - بيروت،ط٥، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

JRD Journal of Renewable Development مجلة التنمية المتجددة